

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

المهندس
عبد
الرفاعي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ

.. ويمكن تلخيص الفارق بين موجودات عالم الأمر ، وبين موجودات عالم الوجود

المخلوق غير المحسوس ، بالنقاط التالية :

[أ] - موجودات عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) تتعلّق بصفات الله تعالى ، فلا تحمل أيّ صفةٍ سلبيةٍ (نقيض إيجابية) ، وكلّ صفاتها إيجابية مرتبطة بصفات الله تعالى .. بينما موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، منها من يحمل صفاتٍ إيجابيةً دائمةً كالملائكة ، ومنها من يحمل صفاتٍ إيجابيةٍ وسلبيةٍ ، كالأنفس البشرية ، وكموجودات عالم الجنّ ..

[ب] - موجودات عالم الأمر لا يُمكن أن تخضع للزمان والمكان .. بينما موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، تخضع للزمان والمكان حينما تُؤطرّ بالجزئيات الماديّة لهذا العالم المحسوس ، كالنفس الإنسانيّة حينما تكون داخل الجسد ، فتحسّ بالزمان والمكان نتيجة وجودها في هذا الوعاء الماديّ (الجسد) ..

[ج] - موجودات عالم الأمر لا يُطلق عليها اسم الشيء ، شأنها بذلك شأن الذات الإلهية ، بينما موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، تخضع لصفات الأشياء ، حينما تُؤطرّ بالجزئيات الماديّة لهذا العالم المحسوس ..

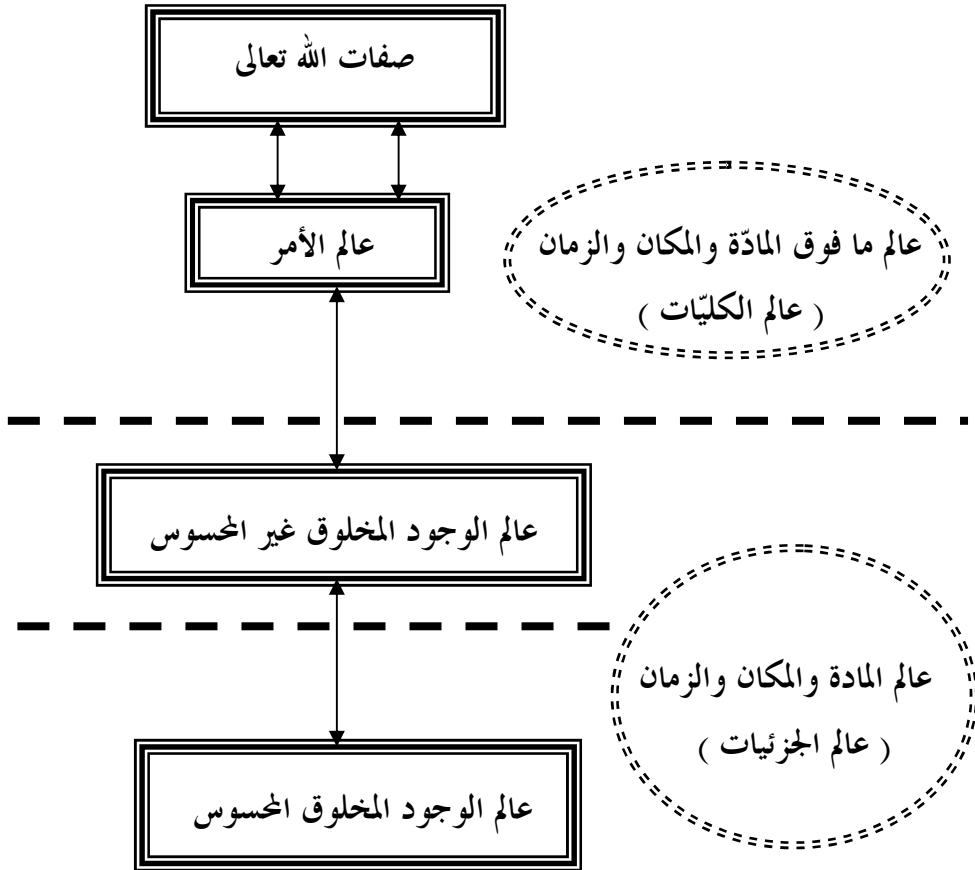
ويمكن تلخيص التشابه بين موجودات عالم الخلق غير المحسوس حينما تكون خارج إطار الجزئيات المادّية ، وبين موجودات عالم الأمر ، بالنقطتين التاليتين :

[أ] - كلاهما غير خاضع للزمان والمكان ..

[ب] - كلاهما لا يتفاعل مع مسألتين متناقضتين في الوقت ذاته ..

.. إذا هناك عالم الخلق المكوّن من جزءٍ محسوس وجزءٍ غير محسوس ، وهناك عالم الأمر المتمايز تماماً عن عالم الخلق .. وقد بيّن الله تعالى - في كتابه الكريم - هذين العالمين المتمايزين وعودتهما إليه جلّ وعلا ..

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤]



.. ولما كان عالم الخلق هو عالم الأشياء (عالم الجزئيات) ، وساحة لتفاعل الموجودات غير المحسوسة مع الجزئيات المادية ، ومع قوانين المكان والزمان ، ومؤطراً يطار المادة والمكان والزمان ، فإن موجوداته تُسمى باسم الشيء ..

.. ولما كان وجودُ الله تعالى فوق وجود الأشياء ، فإن الله تعالى لا يُسمى باسم الشيء ، وكذلك موجودات عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) ..
.. وقول الكثيرين بأنَّ الله تعالى شيءٌ ، استشهاده بالصوره القرآنية التالية ، هو قولٌ غير سليم .. فهذه الصورة القرآنية ليست شاهداً على قولهم ، كما يتوهمون ..

﴿ قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٩]

.. لقد قالوا .. العبارة القرآنية ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ هي جوابٌ للسؤال ﴿ قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ ، وبذلك أولوا العبارة ﴿ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ بأن معناها (وهو شهيدٌ بيني وبينكم) .. فقد فصلوا العبارة ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ عن العبارة ﴿ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ .. فالمبتدأ وخبره ﴿ اللَّهُ شَهِيدٌ ﴾ وضعوا بينهما حاجزاً ، فوضعوا - من جيوبهم - للمبتدأ خبراً بتقدير (قل الله شيء) ، ووضعوا - من جيوبهم - للخبر مبتدأً بتقدير (وهو شهيدٌ بيني وبينكم) ..

.. نقول .. الصورة القرآنية ﴿ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ كلامٌ مستقلٌ تامٌ مكتملٌ بنفسه ، المبتدأ فيه هو كلمة ﴿ اللَّهُ ﴾ ، وخبره ﴿ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ ..

.. وقولهم إنَّ العبارة القرآنية ﴿ قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ ، لا بد لها من جوابٍ مرسومٍ (غير مقدر) في كتاب الله تعالى ، وأنَّ جوابها هو العبارة ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ .. هذا القول ، لا دليل عليه .. فالجواب الذي يريدونه مُستقلٌ عن العبارة الثانية ، ويُقدَّر تقديرًا .. وإن كانوا يستغربون تقدير الجواب ، نقول لهم أين الجواب المرسوم في القرآن الكريم للصورة القرآنية التالية ..

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [يس : ٤٥]

.. وما دفعنا إلى تقدير جواب العبارة الأولى ﴿ قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ ، هو

قوله تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد : ١٦] .. فلو كان الله

تعالى شيئاً ، ويُسمى باسم الشيء ، كما يزعمون ، لكان جلّ وعلا خالقاً لذاته ، وبالتالي لكان سبحانه وتعالى مخلوقاً ، وهذا محال ..

.. وأما قولهم بأنّ العبارة : ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ في الصورة القرآنية ﴿ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

﴿ ، كلامٌ عامٌ دخّله التخصيص ، بمعنى أنّ الله تعالى خلق كلّ الأشياء ما عدا شيئاً واحداً هو ذاته ، واستشهادهم - على ذلك - بوصف الهدهد لملكة سبأ في العبارة القرآنية ﴿

إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٢٣] .. وكذلك بقول

سليمان عليه السلام ﴿ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ١٦] .. وكذلك بقول الله تعالى

عن ذي القرنين ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٤] .. قولهم هذا يتنافى

تماماً مع عظمة الصياغة القرآنية ، التي تصف المسائل وصفاً مطلقاً ، ولا يتكئ على أيّ دليل في حيثيات الصياغة اللغوية للعبارات القرآنية التي يستشهدون بها ..

.. وسنرى إن شاء الله تعالى - في الفصل الثاني - كيف أنّهم أعرضوا عن كلمة ﴿

من ﴾ في العبارة القرآنية ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ التي رأيناها في الصور القرآنية السابقة ،

وسنرى أنّ هذه العبارة ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تعني وَضَعَ اللهُ تعالى بين أيدي هؤلاء الذين

أوتوا من كلّ شيء ، مفاتيح الوصول إلى حقائق كلّ الأشياء ، وكيف أنّهم تفاضلوا في

استعمال هذه المفاتيح ..

.. والعبارة القرآنية ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ في الصورة القرآنية التالية التي استشهدوا بها أيضاً

﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾

[الأحقاف : ٢٤ - ٢٥] ، هي ضمن العبارة ﴿ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ التي تصف

الريح المعنوية في هذه الصورة القرآنية ، أي أنّ هذه الريح إذا أمرها الله تعالى بتدمير أيّ شيءٍ فإنّها تدمره ، وبالتالي إذا لم يأمرها لا تدمره ..

.. وهكذا فالعبارة القرآنية التالية لها مباشرة ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾

تُبين لنا أنّ الله تعالى أمر هذه الريح بتدمير كلّ ما يتعلّق بهؤلاء ، إلّا مساكنهم .. ولا يُمكن القول بأنّ الله تعالى أمر هذه الريح بتدمير كلّ شيءٍ يحيط بهؤلاء حتى مساكنهم ..

.. فالعبارة القرآنية ﴿ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ لم تشمل المساكن ، وقولهم بأنّها تشمل المساكن

تُناسبه الصيغة التالية : (دمّرت كلّ شيءٍ بأمر ربّها فأصبحوا لا يُرى إلّا مساكنهم) .. بينما ورود عبارة التدمير بصيغة المضارع ، يُبين لنا صفة هذه الريح ، ولا يعني الأمر الإلهي الخاصّ بتدمير هؤلاء ..

.. أمّا في قولهم عن العبارة القرآنية ﴿ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، بأنّ ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ في

هذه العبارة كلامٌ عامٌّ دخّله التخصيص ، فإنّنا نقول .. حينما يقول الله تعالى ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

﴿ ، فهذا يعني كلّ شيءٍ .. ولو كانت العبارة القرآنية ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تعني - كما ذهبوا

- كلّ شيءٍ باستثناء الذات الإلهية كشيءٍ من هذه الأشياء ، لتعارض ذلك مع كون الذات الإلهية أعظم وأكبر وأسمى من كلّ الأشياء ..

.. التخصيص الذي يدعونه في هذه العبارة - وفي كلّ عبارة شبيهة - يعني أنّ لفظ

الكلّ يُطلق على الأكثرية الهامة ، باستثناء الأقلية لعدم أهميتها ، ولأنّها - مقارنة مع

الأكثرية - نادرة ، ولأنّ وجودها وعدمه شبه سيّان في المسألة التي تتعلّق بها الكلية التي أدخلنا عليها التخصيص ..

.. وهنا نسألهم السؤال التالي : إن كان الله تعالى شيئاً ويسمّى باسم الشيء كما

تزعّمون ، فهل الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً تنطبق عليه شروط التخصيص هذه؟! .. لو

كان الله تعالى شيئاً ويسمّى باسم الشيء لكان وجوده - بين جملة الأشياء - أعظم

وأكمل وأشرف من كلّ الأشياء ، وبالتالي لا يمكن لعقلٍ سليمٍ أن يتصوّر أنّ الله تعالى

يُطلق لفظ الكلّ على الأشياء ، مستثنياً الذات الأعظم والأشرف من كلّ هذه الأشياء ..

.. لذلك حينما يقول الله تعالى ﴿ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ في الصورة القرآنية ﴿ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، فإنه يعني كل ذات تنتمي إلى عالم الخلق ، ضمن إطار المادة والمكان والزمان (سواء كانت محسوسة أو غير محسوسة) .. وبالتالي فالله تعالى لا يدخل تحت هذه الكليّة لأنّه لا يُسمّى بالشيء ، وأعظم من أن يكون محكوماً لإطار المادة والمكان والزمان ، ومن أن يكون قابلاً لحكم هذا الإطار ..

.. وكذلك الأمر بالنسبة لموجودات عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) ، فإنّها لا تدرج تحت كليّة الأشياء الواردة في العبارة القرآنية ﴿ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ..

.. وفي استشهادهم بالصورة القرآنية ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] ، على أنّ الله تعالى شيء ، بعد أن أولوا الوجه بأنّه الوجود والحقيقة ، حيث قالوا .. المراد بهذه الصورة : كل شيء هالكٌ إلا هو .. نقول .. هذا التأويل غير سليم ، والتوجه في - كتاب الله تعالى - يعني تسديد القصد نحو الغاية التي يتمّ التوجه إليها ..

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام : ٧٩]

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجَّهُهُ لَا يَأْتِ خَيْرًا ﴾ [النحل : ٧٦]

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : ٢٢]

.. ولذلك فالوجه هو المسلك الذي يتمّ عبّره تسديد القصد نحو الغاية التي يتمّ التوجه إليها عبر هذا المسلك (الوجه) ..

﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٤٨]

.. هذا المعنى للوجه نستشفّه من الصورة القرآنية التالية ..

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم :

[٣٩

.. فالمقصود بوجه الله تعالى هنا هو قصد الله تعالى والغاية من عبادته جلّ وعلا ..
 .. هذا المعنى الجرد للجذر (و ، ج ، هـ) لا يتغيّر حتى حينما ترتبط كلمة متفرّعة عنه بمسألة حسّية .. فوجه الإنسان (كمادّة وحسّ) هو آليّة اتّجاهه نحو الأشياء ، لأنّه يجوي حواسّ البصر والسمع والذوق والشمّ ، إضافة لحاسّة اللمس التي يشترك فيها مع باقي الجسم .. فالإنسان - كنفوس وجسد - يتوجّه إلى الأشياء في هذا العالم المادّي ، عبر آليات الحسّ التي يجويها الوجه المعروف ..

.. وهكذا نرى أنّ الصورة القرآنيّة ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ تعني أنّ الذوات المادّيّة التي تنتمي إلى عالم الخلق (عالم الأشياء) ، والتي أوجدها الله تعالى وسخّرها بين أيدينا لامتحاننا في هذه الدنيا ، هي زائلة فانية ، ولا يبقى إلّا قصد الله تعالى من إيجادها ، والغاية التي سخّر الله تعالى هذه الأشياء إليها ..

.. وإذا نظرنا إلى هذه الصورة القرآنيّة مع سياق القول المحيط بها .. ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ

اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٨٨] ، فإننا سنرى أنّ الله تعالى يقول : لا تُشرك مع الله تعالى إلهاً آخر ، فلا إله إلّا الله تعالى ، وكلّ شيءٍ ممّا تُشرك به مع الله تعالى ، وممّا لم تُشرك به ، سيهلك ، ولا يبقى إلّا قصد الله تعالى من امتحانك في وجود هذه الأشياء وتسخيرها بين يديك ، والحكم في النهاية لله تعالى ، وإليه سترجع المخلوقات ..
 وهناك صورة قرآنيّة أخرى تُلقِي الضوء على هذه المسألة ..

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ -

[٢٧

ففي العبارة القرآنيّة ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ﴾ نرى أنّ الله تعالى يقول ﴿ رَبِّكَ ﴾ ، ولم يقل (ويبقى وجه الربّ) ، وبالتالي نرى أنّ الخطاب يخصّ ما أعطاه الربّ عزّ وجلّ لكلّ

فردٍ من خصوصية لامتحانهِ ، وهذا الذي أعطاه إياه سيفني ويزول ، ولا يبقى منه إلا ما تمّ تسديده من القصد والهدف باتجاه ربّ هذا الممتحن ..

وهكذا نرى أنّ الله تعالى مترّة عن الشبيبة ، وعن خواصّ عالم الأشياء (عالم الخلق) ، سواءً الجانب المحسوس أم غير المحسوس ، لأنّ كلّ موجودات عالم الخلق والتشبيؤ محكومة لقوانين عالم المادّة والمكان والزمان ، أو قابلة لأن تكون محكومةً لهذه القوانين كما رأينا .. هذه الحقيقة نراها واضحةً جليةً في الصورة القرآنية التالية

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١]

.. إنّنا نرى أنّ كاف التشبيه تزيد في بيان ابتعاد الذات الإلهية عن الشبيبة .. فلو قال الله تعالى (ليس مثله شيء) دون كاف التشبيه ، لربّما يتسرّب إلى الذهن أنّ الله تعالى شيءٌ ولكن يختلف عن باقي الأشياء .. بينما بوجود كاف التشبيه نرى بياناً يفيد أنّ الله تعالى لا يوجد في عالم الأشياء مثله ، ولا مثل مثله ﴿ كَمِثْلِهِ ﴾ ..

.. لذلك نرى كيف أنّ الله تعالى يُورد في كتابه العزيز كلمة ﴿ كَمِثْلٍ ﴾ في المقارنة

بين آدم وعيسى عليهما السلام ..

﴿ إِنِّ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

﴾ [آل عمران : ٥٩]

إنّ خلق عيسى عليه السلام يشبه خلق آدم عليه السلام ، ولكن ليس مثله تماماً ، وإنّما كمثلُه .. صحيحٌ أنّ كليهما وُلد دون أب ، ومباشرةً من ترابٍ دون مراحل الخلق المعروفة أثناء الحمل ، ولكنّ عيسى عليه السلام وُلد من أمٍّ ((ليس بمفهوم الولادة الناتجة من اجتماع النطفة مع البويضة كباقي نساء الأرض ، وإنّما بمفهوم الحمل لساعات محدودة)) ، بينما آدم عليه السلام لم يُولد من أمٍّ ، بمعنى لم يُحمَل في رحم أنثى ..

.. فكاف التشبيه حينما دخلت على كلمة مثل ﴿ كَمِثْلٍ ﴾ ، نراها تُخرج المماثلة من

ساحةٍ واحدةٍ إلى ساحتين بينهما اختلاف ... وهكذا نرى أنّ نفي المماثلة المقرونة بكاف

التشبيه في العبارة القرآنية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، تُخرج المماثلة من أيِّ ساحةٍ كانت ..

فاجتماعُ كاف التشبيه مع كلمة مثل ﴿كَمِثْلِهِ﴾، يعني أنَّ التشبيه هو بمثل المثل، وبالتالي فالتشبيه ينتقل من المماثلة في الذات إلى المماثلة في بعض الصفات المعنوية من منظار هذا التشبيه ..

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠]

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]

.. إذاً قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، يعني أنَّ الله تعالى ليس كالأشياء، وليست صفاته كصفات الأشياء، فسمعه وبصره وكلُّ صفاته ليست كما هي عند الأشياء ..